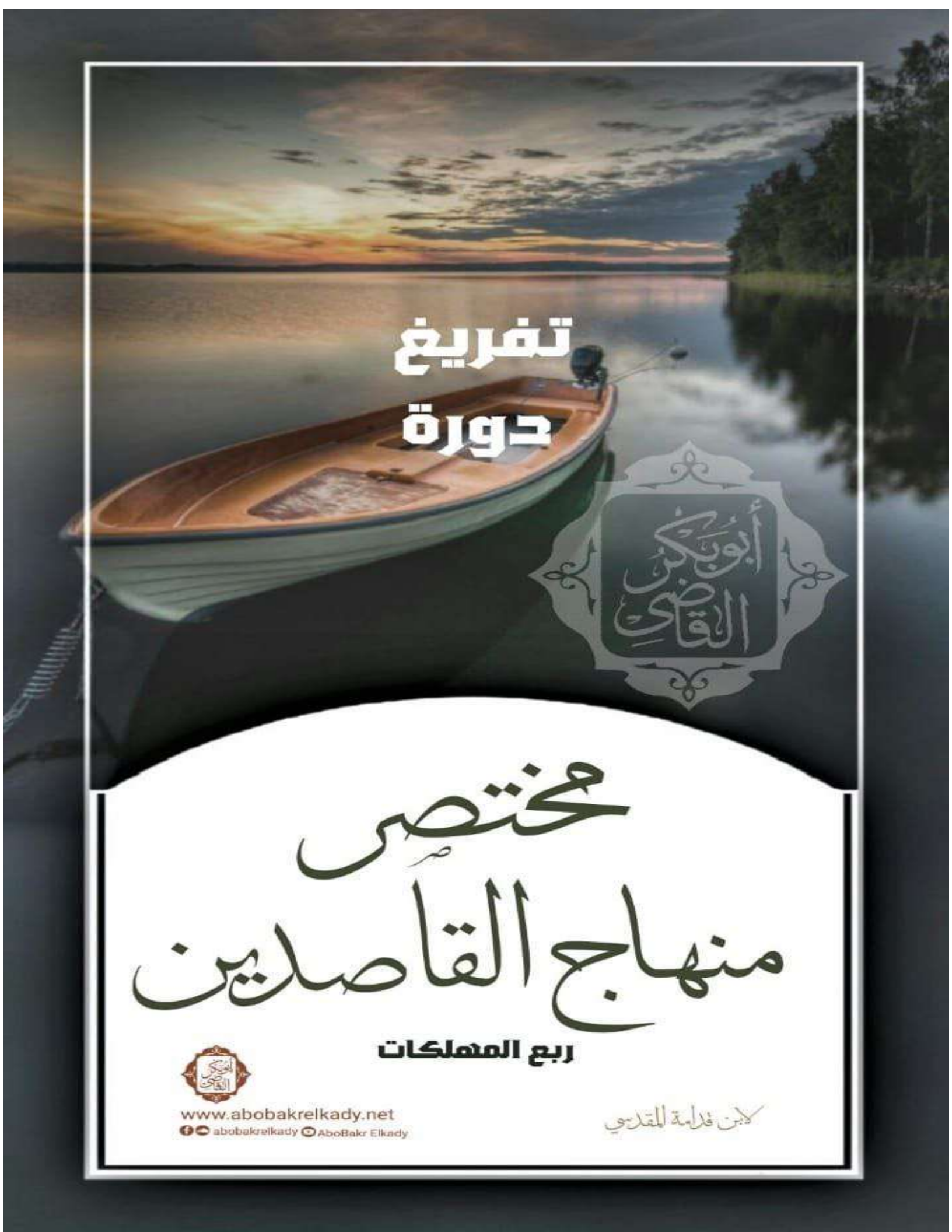

تفريغ

دورة

أبو بكر القاضي

مختصر منهاج القاصدين

ربع المهلكات

لابن قدامة المقدسي

www.abobakrelkady.net

abobakrelkady AboBakr Elkady

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ثمّ أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار، ثمّ أما بعد:

نستكمل ما بدأناه من كتاب «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة -رحمه الله تعالى-، ونحن لا زلنا في كتاب الغضب الذي يتحدث عن الغضب، والغضب يثمر الحقد إذا لم يُنفس والحسد كذلك.

والغضب إذا تم علاجه بما يضاده: من تذكر الآثار الواردة في فضل كظم الغيظ، وتذكر عقاب الله عز وجل، ويذكر أيضًا أن هذا الذي أغضبه هو من قدر الله -تبارك وتعالى- ومن عقوبة الله له، فينبغي عليه أن يصبر ويحتسب ويصبر على الأذى، وأن يقابل الإساءة بالإحسان والعفو والصفح وغير ذلك، وأن يتوضأ، وأن يجلس إذا كان قائمًا، وأن يطضجع إذا كان جالسًا.

إذا تم علاج الغضب؛ فإنه لا يتحول إلى الحقد والحسد، حتى وإن لم ينتقم فإن عنده ما يضاده في نفسه، وما يطهر قلبه من هذه الشهوة الغضبية.

من أعظم أسباب الغضب هو: -

- العجب بالنفس.
- كثرة المزاح.
- المماراة.
- المضادة.
- الغدر.

- شدة الحرص على الجاه والمال وغير ذلك من الأسباب.

فخلاصة أسباب الغضب أيضًا هو: حب الدنيا، وحب الظهور، وحب الشهرة، وحب العلو على الناس وغير ذلك.

كل هذه الأمراض القلبية أصلها حب الدنيا والتطلع إليها، والتطلع إلى نظر الناس، والعلو عليهم وغير ذلك. فإذا طهر القلب من ذلك؛ فإنه يحلم، وليس فقط يحلم، بل يحلم ويعفو ويرفق، بل ويحسن مع الإساءة .

∴ قال: "**فصل في الحلم:**

روى أبوهريرة -رضي الله عنه- عن النبيﷺ أنه قال: "إِنَّما العلمُ بِالتَّعَلُّمِ، و إِنَّما الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ" [السلسلة الصحيحة].

- لا يوجد أحد ليس لديه قدرة على تطوير مهاراته الذاتية، وعلى تطوير أخلاقه، وعلى تقويمها وتهذيبها فالكل يستطيع ذلك.

قال: "اطلبوا العلم، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تعلمون ولمن تعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم عليكم" هو حديث سنده ضعيف ولكن معناه صحيح.

• قال ﷺ لأشج عبد القيس: "إنَّ فيكَ خَصلتينِ يحبُّهُما اللَّهُ: الحِلمُ، والأَناةُ" [صحيح الترمذي].

• وشتم رجل ابن عباس -رضي الله عنهما-، فلما قضى مقالته قال: "يا عِكرِمةُ، هل للرَّجلِ حاجةٌ فنقضيَها؟ فنكَّس الرَّجلُ رأسَه، واستحى".

• وأسمع رجل معاوية كلامًا شديدًا فقيل له: "لو عاقبته!" فقال: "إنّي أستَحيي أن يَضيقَ حِلمي عن ذَنبِ أحدٍ مِن رعيَّتي"وهذا من مكارم الأخلاق.

• وقسم معاوية نطعًا فبعث منها إلى شيخ من أهل دمشق فلم يعجبه، فجعل عليه يمينًا أن يضرب رأس معاوية، فأتى معاوية فأخبره فقال له معاوية: "أوفي بنذرك وأرفق بالشيخ".

أي: ارفق بي -أنا شيخ-، وهذا من الحلم مع القدرة على الانتقام والدفع.

• وجاء غلام لأبي ذر وقد كسر رجل شاة له، فقال: "ومن كسر رجل هذه؟! قال: أنا فعلته عمدًا لأغيظك، فتضربني فتأثم. فقال: لأغيظن من حرضك على غيظي؛ فأعتقه" أي الشيطان.

انظر إلى فقه الصحابة! هذا هو فقه الصحابة كيف كانوا يتناولون المواقف، كل موقف من مواقف حياتهم ما هي إلا مادة من مواد الامتحان هل سيأثمون أم سيؤجرون؟ في كل موقف، في كل إحساس، في كل شعور، في كل قرار، في كل اختيار، في كل علاقة.

• قال: "وشتم رجل عديًا بن حاتم وهو ساكت، فلما فرغ من مقالته قال: "إن كان بقي عندك شيء فقله قبل أن يأتي شباب الحي، فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا"

• ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة في الظلمة، فمر برجل نائم فعثر، فرفع رأسه وقال: "أمجنون أنت؟! فقال عمر: لا، فهم به الحرس فقال عمر: مه إنما سألني أمجنون؟ فقلت: لا"

ومما لا شك أن هذا ليس سؤال ساذج، إنما هو سؤال يتضمن إهانة، يتضمن استهزاء، يتضمن سخرية، ولكنه تغافل وحلم.

وللعلم: الحلم لا يأتي إلا مع التغافل، فليس من الضروري أن تتحقق من كل شيء، وتأخذ على صدرك كل شيء، وتفكر في كل شيء، بل تغافل.

قيل لأعرابي: من العاقل؟!

قال: الفطن المتغافل. هو فطن، ولكنه متغافل.

• ولقي رجل علي بن الحسين -رضي الله عنهما- فسبه، فثارت إليه العبيد، فقال: "مهلًا، ثم أقبل على رجل، فقال: ما ستر عنك من أمرنا أكثر -من العيوب-، ألك حاجة نعينك عليها؟! فاستحيا الرجل فألقى عليه خميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول ﷺ"

• ﷺ الذي جلبه الأعرابي من شملته حتى أثرت في رقبته، فتبسم وقال: "رحِمَ اللهُ أخي موسى؛ لقد أُوذِيَ بأكثَرَ مِن هذا فصبَرَ " [صحيح البخاري ومسلم].

• وقال رجل لوهب بن منبه: "إن فلانًا شتمك، فقال: ما وجد الشيطان بريدًا غيرك"

- هذا الأمر نميمة لا شك، وابن منبه فهم ذلك، فعلمه أن الشيطان هو الذي بعثه بريدًا؛ فلنتقِ الله في ألسنتنا، ولنتقِ الله -عزوجل- في معاملاتنا، ولنتقِ الله -عزوجل- في مشاعرنا.

∴ قال: "**فصل في العفو والرفق:**

اعلم أن معنى العفو أن تستحق حقًا فتسقطه، وتؤدي عنه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم والكظم.

- قال الله تعالى: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [آل عمران:١٣٤].
- وقال: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} [الشورى:٤٠].
- وبالحديث أن النبي ﷺ قال: "ما نَقَصَتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ، وما زادَ اللَّهُ عَبْدًا بعَفْوٍ إلَّا عِزًّا، وما تَواضَعَ أحَدٌ للَّهِ إلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ" [صحيح مسلم].

• وعن عقبة بن عامر قال: "قلْتُ : يا رسولَ اللهِ، أَخبِرْني بفَواضِلِ الأعمالِ. فقال ﷺ: يا عُقْبةُ، صِلْ مَن قَطَعَك، وأَعْطِ مَن حَرَمَك، وأَعرِضْ عمَّن ظَلَمَك" [تخريج المسند لشعيب].

• وروي أن مناديًا ينادي يوم القيامة ليقم من وقع أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا عمن ظلمه.

• وعن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: " إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي علَى الرِّفْقِ ما لا يُعْطِي علَى العُنْفِ" [المعجم الأوسط].

• وفي الصحيحين من حديث عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ أنه قال:" إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كلِّه" [صحيح ابن حبان].

• وفي حديث آخر: " مَن يُحْرَمِ الرِّفْقَ، يُحْرَمِ الخَيْرَ" [صحيح مسلم].

دفع الغضب بكظم الغيظ والحلم والرفق والعفو يكون من انشغال النفس بالله عن الناس، وبواجباته وحقوقه، بواجبات العبودية ومستحباته.

فمن انشغل -عباد الله- بالله عزوجل؛ انشغل عن الناس وعن آذاهم، ووجد في نفسه سعة وسعة صدر ورحابة صدر، ألا يلتفت إلى هذه الترهات، وإلى هؤلاء الفانين المخلوقين الضعفاء الفقراء، بل دائمًا يكون مع الغني -تبارك وتعالى- شهودًا، وحضورًا، وعلمًا، وعملًا، وبذلًا، وإيثارًا، وذكرًا، وشكرًا، وإنابَة، وأنسًا به تبارك وتعالى.

هذه نكتة المسألة في الحقيقة: قال ﷺ : " ليسَ الغِنَى عن كَثْرَةِ العَرَضِ، ولَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ" [صحيح البخاري].

كذلك كان شيخ الإسلام يقول: "ماذا يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري معي لا تفارقني أينما ذهبت، إن حبسوني فخلوة، وإن نفوني فسياحة، وإن قتلوني فشهادة"

لذلك تجدهم بكل بساطة يؤذنه ويثير عليه الناس، فيكونون سببًا في سجنه، بل قد يكونون سببًا في تعرضه للقتل، ومع ذلك يعفو ويصفح، لماذا؟ لأنه مشغول بالله عزوجل، مشغول بحلاوات الإيمان ومذاقات الإيمان والمقامات والأحوال التي يترقى فيها إلى الله عزوجل.

∴ قال: "**باب في الحقد والحسد:**

اعلم أن الغيظ إذا كُظِمَ لِعَجْزٍ عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن، فاحتقن فيه فصار حقدًا، وعلامته: دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه. فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد"

• وعن الزبير بن العوام -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: " دبَّ إليكم داءُ الأُمَمِ قبْلَكم؛ الحسَدُ والبَغضاءُ" [تخريج منهاج القاصدين].

• وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: " لا تَباغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إخْوانًا" [صحيح البخاري].

- إذًا لا تحاسدوا: دليل على أن هذا منهي عنه، وأنه في طاقة العبد ما دام نهي عنه، وأُمر ألا يحسد: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة:٢٨٦]

إذًا أنت في استطاعتك أن تكون طاهر القلب، نقي القلب من الغش والدغل والغل والحقد والحسد والوغر والغيظ، أنت قادر على ذلك.

• وعن النبي ﷺ أنه قال: " الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ" [حسن غريب].

• وفي حديث آخر أنه قال: "يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل فسأل عن عمله فقال: إني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشًا ولا حسدًا على خير أعطاه الله إياه، قال: تلك التي بلغت بك وتلك التي لا نطيق" عبد الله بن عمرو بن العاص قال له ذلك.

لكن أقول: نطيقها إن استعنا بالله عزوجل.

• قال: وروينا أن الله تبارك وتعالى يقول: "الحاسد عدو نعمتي، متسخط لقضائي، غير راض بقسمتي بين عبادي".

- وهذا صحيح؛ لأن الحسد نابع عن سخطه على القدر، وعدم رضا بقسمة الأرزاق.

تسمع من أحدهم يقول: "يعطي الحلق للذي ليس له أذن" لا بل هو له أذن حتى لو لم ترى ذلك.

إذًا الحسد منشأه سخط على القدر، فالرضا بالقضاء والقدر، والرضا والتأمل في اسم الله عزوجل الرزاق والحكيم تبارك وتعالى، وأنه يضع الشيء في موضعه تبارك وتعالى، وأنه قد يكون صرف عنك هذه النعمة لخير لك أنت لا تحيط به، وهذا من ثقة العبد بالله تبارك وتعالى، وأيضًا منشأه طبعًا الغل وخبث في النفس كما سيأتي.

• قال ابن سيرين: "ما حسدت أحدًا على شيء من أمر الدنيا؛ لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو يصير إلى الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا وهو يصير إلى النار"

• قال إبليس لنوح عليه السلام: "إياك والحسد فإنه صيرني إلى هذه الحال".

**ويبعد جدًا أن ينصح إبليس أحدًا من البشر.

قال: "واعلم أن الله تعالى إذا أنعم على عبد النعمة فلك فيها حالتان:

- إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها؛ فهذا هو الحسد.

- والحالة الثانية: ألا تكره وجودها ولا تحب زوالها، ولكنك تشتهي نفسك مثلها فهذا يسمى غبطة.

- والغبطة ينبغي ألا تكون إلا في أمور الدين، قال ﷺ : "لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ" [صحيح البخاري].

ولا حسد محمود، أي لا حسد مشروع -أي الغبطة- إلا في اثنتين: إنفاق العلم، وإنفاق المال.

تعلم القرآن وتعليمه، وإنفاق المال في سبيل الله عزوجل، أما غير ذلك من الغبطة في أمور الدنيا فهو منهي عنه أن ننظر إلى من هو فوقنا في الدنيا فهذا منهي عنه في الجملة.

والغبطة في الدين جائز، ومع ذلك ليس هوالأكمل. والأكمل هو الانشغال بالله عزوجل، وأن تبذل ما تستطيع بدون أن تنظر إلى أحد كما كان حاله أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- ومنافسة عمر له ولم ينافسه أبو بكر -رضي الله عنه-، وكما كان حال النبي ﷺ وموسى عليه السلام في ليلة المعراج، غبطة موسى له مع كمال النبي ﷺ في عدم الالتفات إلى أحد.

ومن منزلة الاخبات كما ذكرها ابن القيم -رحمه الله-: أن العبد يعمى عن نقصان الخلق عن درجته أو زيادته فهو يبذل ما يستطيع.

قال المصنف رحمه الله: "قلت واعلم أني ما رأيت أحدًا قد حقق الكلام في هذا كما ينبغي ولا بد لي من كشفه".

أي لا أحد يستطيع أن يحقق الكلام في أمر الغبطة كما ينبغي، ولا بد من كشفه.

فأقول: اعلم أن النفس قد جُبلت على حب الرفعة فهي لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها؛ شق عليها وكرهته وأحبت زوال ذلك ليقع التساوي.

وهذا أمر مركوز في الطباع، وقد روى أبو هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: " ثلاثٌ لا ينجو منهنَّ أحدٌ : الظَّنُّ والطِّيَرةُ والحسدُ وسأحدِّثُكم بالمخرجِ من ذلك إذا ظننتَ فلا تُحقِّقْ وإذا تطيَّرتَ فامْضِ وإذا حسدتَ فلا تبْغِ " [حديث موضوع].

قال: وعلاج الحسد تارة بالرضا بالقضاء، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة ؛ فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلًا، ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته.

فأما من يحسد نبيًا على نبوته، فيجب ألا يكون نبيًا أو عالمًا على علمه، فيؤثر ألا يرزق ذلك أو يزول عنه؛ فهذا لاعذر له، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة.

فأما إن أحب أن يسبق أقرانه ويطلع على ما لم يدركوه؛ فإنه لا يأثم بذلك فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عليهم ليزيد حظه عند ربه.

كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاهما، فأحب أحدهما أن يسبق، وقد قال الله تعالى: {وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين:٢٦].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أنه قال: " لا حسدَ إلا على اثنتينِ رجلٌ آتاه اللهُ مالًا فهو ينفقُ منه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ ورجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يقومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ" [تخريج المسند لشاكر].

قال: "والحسد له أسباب:

أحدها العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس وبخلها.

وأشدها: العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب وخالفه في غرضه؛ أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد.

والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك، وظنه مكافأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك. فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقى ألا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه".

- يعني حتى الإنسان المؤمن إن وجد في نفسه هذا الشعور البغيض؛ فإنه يكره ذلك من نفسه.

"فأما أن يبغض إنسان؛ فيستوي عنده مسرته ومساءته؛ فهذا غير ممكن".

- ينبغي عليك أن تكره ذلك من نفسك، وأن تنفع المحسود، كما قيل للحسن البصري: "أو يحسد المؤمن؟! قال: ما أنساك لإخوة يوسف، ولكن عمه في صدرك، فإنه لا يضرك ما لم تعدو به يدًا أو لسانًا".

فالحسد أسبابه العداوة .

أول شيء تكلم فيها هي العداوة: أشدها العداوة والبغضاء، فإن الإنسان ينبغي عليه أن يقاوم نفسه في ذلك .

قال: "وأما الكبر فهو أن يصيب بعض نظرائه مالًا أو ولاية، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره، أو يكون من أصاب ذلك دونه، فلا يحتمل الترفع عليه أو مساواته.

وكان حسد الكفار لرسول الله ﷺ قريبًا من ذلك.

- قال الله تعالى: { وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ } [الزخرف:٣١].
- وقال في حق المؤمنين: {أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ} [الأنعام:٥٣].
- وقال في آية أخرى: { قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا} [يس:١٥].
- وقال: { وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ } [المؤمنون:٣٤].

فعجبوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشرًا مثلهم؛ فحسدوهم.

- فهم كانوا يرون أنفسهم أحق بالرسالة من النبي ﷺ، والله عز وجل هو الذي يجعل رسالته حيث يشاء.

قال تعالى: { ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ} [الأنعام:١٢٤].

قال تعالى: { وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ} [القصص:٦٨]

"ومن فروع الكبر: حب الرياسة والجاه، فمثاله أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به، من أنه أوحد العصر، وفريد الدهر في فنه، إذا سمع بنظير له في أقصى العالم، ساءه ذلك وأحب موته، أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم، أو شجاعة، أو عبادة، أو صناعة، أو ثروة، أو غير ذلك، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد.

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يؤمنون خوفا من بطلان رئاستهم.

وأما خبث النفس وشحها على عباد الله، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر، وإذا وصف عند حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم عليه به، شق عليه ذلك".

- هو فقط لا يؤيد أن يصيبه خير.

" وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وتنغيص عيشهم، فرح به، فهو أبدا يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته".

- بل يبخل بأموال الناس على الناس وليس بماله هو عن الناس وإنما بأموال الناس على الناس.

قال: "وقد قال بعض العلماء: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح الذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعمى الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع، وهذا معالجته شديدة، لأنه ليس له سبب عارض، فيعمل على إزالته، بل سببه خبث الجبلة، فيعسر إزالته، فهذه أسباب الحسد".

∴ فصل في سبب كثرة الحسد:

واعلم أنما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، ويقع ذلك غالبًا بين الأقران، والأمثال، والإخوة، وبني العم؛ لأنها سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل التناقض فيها؛ فيثور التنافر والتباغض، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، والاسكاف يحسد الاسكاف، ولا يحسد البزاز إلا؛ أن يكون بسبب آخر".

- يعني الاسكافي لا يحسد البزاز؛ إلا أن يكون بسبب آخر غير التناقض في الأغراض؛ لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر.

"فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين إذ لا رابطة بين شخصين في بلدين، ولا يكون بينهما محاسدة إلا من يشتد حرصه على الجاه، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يساهم في الخصلة التي يفاخره فيها.

ومنشأ جميع ذلك -وهذا هو لُب المسألة: حب الدنيا- فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين.

وأما الآخرة فلا ضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالى، وملائكته، وأنبيائه، وملكوت أرضه وسمائه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك؛ لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، بل المعلوم الواحد يعرفه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته.

فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة -هذا هو المفترض-؛ لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم المنزلة عند الله، ولا ضيق فيما عند الله؛ لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة.

ولا يُضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأُنس بكثرتهم، إلا أنه إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا".

- وهذا هو سبب التحاسد بين العلماء: إرادة الدنيا.

كما قالها ابن الجوزي- رحمه الله-: "تأملت التحاسد بين العلماء، فوجدته من حب الدنيا فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسدون .

قال: "والفرق بين العلم و المال: أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن يد أخرى، والعلم مستقر في قلب العالم، ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، ولا نهاية له.

فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكه؛ صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم؛ لأنه لم يكن ممنوعًا ولا مزاحمًا فيه، ولا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق؛ لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته، فقد عرفت أنه لا حسد إلا في المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل".

- وهذا لا يكون إلا في الدنيا الضيقة -جناح البعوضة-، أما في الأمور التي توصل الآخرة: من العلوم، والفهوم، والأعمال الصالحة، وأعمال القلوب الصالحة فهذا لا ضيق فيه.

"ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلي زينة السماء؛ لأنها واسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار. فعليك إن كنت شفيقًا على نفسك أن تطلب نعيمًا لا زحمة فيه، ولذة لا تتكدر، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله تعالى وعجائب ملكوته، ولا ينال ذلك في الآخرة لا بهذه المعرفة أيضًا.

فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها وضعفت فيها رغبتك؛ فلست برجل وإنما هذا شأن الرجال -شأن الرجال هو معرفته عز وجل-؛ لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين.

واعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوة أمراض القلوب؛ إلا بالعلم والعمل.

والعلم النافع لمرض الحسد هو: أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا بل ينتفع به.

والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة -إن كنت عاقلًا- أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الآخرة ؟!

وبيان قولنا أنا المحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع بحسدك في الدين والدنيا؛ لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك؛ لأن ما قدره الله له من نعمة لا بد أن يدوم إلى أجله، بل ينتفع به لأنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل.

وأما منفعته في الدنيا: فهو أن من أهم أغراض الخلق أغم الأعداء، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد.

فإذا تأملت ما ذكرنا علمت أنك عدو نفسك، وهو صديق لعدوك، فما مثلك إلا كمثل من يرمي حجرًا إلى عدو ليصيب مقتله فلا يصيبه، ويرجع الحجر إلى حدقته اليمنى فيقلعها؛ فيزيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول فيرجع الحجر على عينه الأخرى؛ فيعميها فيزداد غضبه، فيرميه ثالثًا فيعود الحجر على رأسه؛ فيشدغه وعدوه سالم يضحك به.

فهذه الأدوية العلمية، وإذا تفكر الإنسان فيها أخمدت نار الحسد من قلبه.

وأما العمل النافع: فهو أن يتكلف نقيد ما يأمر به الحسد، فإذا بعثه على الحقد والقدح في المحسود؛ كلف نفسه مدح له والثناء عليه. وإن حمله على الكبر؛ ألزم نفسه التواضع له. وإن بعثه على كف الإنعام عنه؛ ألزم نفسه الزيادة في الإنعام.

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصًا اغتابهم أهدوا إليه هدية.

فهذه الأدوية نافعة للحسد جدًا إلا أنها مُرة، وربما يسهل شربها أن يعلم أنه لا يكون كل ما تريد، فأرد ما يكون، وهذا هو الدواء الكلي والله أعلم.

∴ الرضا بالقضاء والقدر:-

وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن مشيئته متعلقة بحكمته المطلقة تبارك وتعالى، وأن حكمته متعلقة بالخير المطلق. فهو تبارك وتعالى يشاء الخير المطلق لك ولغيرك، فينبغي عليك أن تعلم أن ما قدره هو خير لك، وأن صرف هذه النعمة عنك وحجبها عنك هو خير لك -وإن كنت لا تدري ذلك.

فإذا ارتاح قلبك بالإيمان بالقضاء والقدر، وعلمت أن هذا الأمر إذا أخذت أسبابه ولم يأتك أن هذا هو الخير لك؛ فترتاح وتريح الناس من هذه المشاعر وهذه البغضاء وهذه الأحقاد.

- لُب الأمر -كما ذكرنا- حب الدنيا رأس كل خطيئة كما يقول الأوزاعي- رحمه الله تعالى.
  ولذلك نزع حب الدنيا من القلب هو أصل ذلك .